كنيسة السيدة العذراء والقديس أثناسيوس

بمدينة نصر

تقدم

القديس أثناسيوس الرسولى فى :

دفاعه عن هروبه وقت الإضطهاد

دفاع القديس أثناسيوس الرسولى عن هروبه

مترجم عن الجزء السادس والخمسين من مجموعة :

Athanase d'Alexandrie
Apologie pour sa fuite
Introduction, texte critique, traduction et notes
par Jan. M. Szymusiak s. j.

قداسة البابا شنوده الثالث

تقديم

شهية جداً هي سير الآباء القديسين ، إنهم كأنوار في العالم يضيئون لنا الطريق ، وأمثلة حية نقتدى بها .

إن القديس أثناسيوس الرسولى هو البابا العشرين للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ، تلقبه الكنيسة بلقب الرسولى وثالث عشر الرسل لأنه جاهد جهاد الرسل ، فهو بالحقيقة حامى الإيمان وبطل الأرثوذكسية . قال عنه القديس جيروم : [مر وقت كاد فيه العالم كله أن يصبح أريوسياً لولا أثناسيوس] ... حقاً لولاه لكان الإيمان الذى وصل إلينا غير الإيمان المُسَلَّم مرة للقديسين .

هذه الصفحات هي من روائع كتابات القديس عن فترة هروبه من أمام مقاوميه في الإيمان مظهراً عناية الله الفائقة به ، كما تبدو أيضاً من كتاباته شجاعته النادرة التي لم تتعارض مع هروبه من الشر .

وكنيستنا التي تفخر بشفيعها العظيم ، تشكر الله على ظهور هذا الكتاب ، راجية أن يكون باكورة لسلسلة من كتاباته بصلوات وتوجيهات قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث حين افتتح كنيستنا التي تحمل إسم القديس العظيم .

ونضرع إلى الله أن يعوض كل من تعب في ظهور هذا الكتاب ونخص بالذكر الأستاذ مليكه حبيب الذى قام بترجمته ، وإذ نضع هذا الكتاب بين يدى من احتمل الآلام لأجلنا نضرع إليه أن يجعله بركة لكل من يقرأه .

الكنيسة

دفاع القديس أثناسيوس الكبير
رئيس أساقفة الإسكندرية
وتصرفه الحكيم وقت الإضطهاد

مقـــدمـــة

قال القديس أثناسيوس الرسول :

يبدو أن « ليونس » أسقف انطاكية الحالى ، ومعه الأسقف « نرسيس » Narcisse ، وجورج من لاودكية وسائر الأريوسيين التابعين لهم يشيعون ضدى إفتراءات عديدة ؛ وسمعهم الناس يتهمونى بالجبن ، لأنى لم اسلم نفسى إلى أيديهم وأترك حقى فى الدفاع إزاء مناوراتهم لكى يهلكونى .

يمكننى حقاً أن أقدم ضد أعمالهم المهينة وترهاتهم أكثر من واقعة لا يستطيعون أن ينكروها ، لأنه يعرفها كل الناس . ولكنى لن أرضى بغير كلمة الرب فى دفاعى بديلاً ، وهى القائلة أن الكذاب إبن

الشيطان : « أنتم من أب هو إبليس وشهوات إبيكم تر يدون أن تعملوا . ذاك كان قتالاً للناس من البدء ولم يثبت فى الحق لأنه ليس فيه حق . متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب » (يو٨ : ٤٤) وقول الرسول : « إن الظالمين لا يرثون ملكوت الله » (١ كو٦ : ٩) .

فإنه يكفى فعلاً أن أجابههم بهذه الأحكام لكى أبين معارضتهم الكاملة للإنجيل فى أفكارهم وأعمالهم . يتهمونى بالجبن ، لذلك أرى لزاماً علىَّ أن أذكر الموضوع فى كلمات على ضوئها سوف يظهر أنهم أشرار وأنهم لم يعرفوا الكتاب المقدس أبداً ؛ أو إذا كانوا قد علموا به فهم لا يؤمنون بالوحى الإلهى ، لأنهم لو كانوا يؤمنون ، ما كانوا يسخّرون جسارتهم ضد تعاليمه ، وما كانوا ينافسون اليهود قتلة السيد المسيح فى شرهم .

لقد أمر الله بإكرام الوالدين : « اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك » (خر٢٠ : ١٢) ، وبمعاقبة من يلعن أباه أو أمه بالموت : « ومن شتم أباه أو أمه يُقتل قتلاً » (خر٢١ : ١٧) ، ولكن اليهود قد قلبوا الوصية حتى جعلوا الشرف إهانة ، وتحوّل المال الذى يجب على الأبناء اعطاءه للوالدين عن وجهه الصحيح : « فإن الله أوصى موسى قائلاً اكرم أباك

وأمك . ومن يشتم أباً أو أماً فليمت موتاً . وأما أنتم فتقولون من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذى تنتفع به منى . فلا يكرم أباه أو أمه . فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم . » (مت ١٥ : ٤-٦) .

ومن جهة أخرى كان اليهود يعلمون ما فعله داود : « فأعطاه الكاهنُ المقدسَ لأنه لم يكن هناك خبز إلا خبز الوجوه المرفوع من أمام الرب لكى يوضع خبز سخن فى يوم أخذه » (١صم ٢١ : ٦) ولكنهم أوّلوه على عكس معناه وعابوا على الأبرياء إنهم يقطفون السنابل و يفركونها فى يوم سبت : « فى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزروع . فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل و يأكلون » (مت ١٢ : ١) . والواقع أنه لم يكن يعنيهم الناموس ولم يبالوا بالسبت : لأنهم كانوا يتعدون الناموس فى السبت أكثر من باقى الأيام . لكنهم كانوا فى فسادهم يغارون ؛ يرون المسيح يعذر الرسل ، وكانت رغبتهم الوحيدة أن يروا رأيهم الخاص هو الفائز ؛ وهم بهذا الحيف قد نالوا الجزاء ؛ وفقدوا طابعهم المقدس ، وحقّ عليهم منذ ذلك الحين أن يدعوا رؤساء سدوم وشعب عمورة : « اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم . اصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة » (أش ١ : ١٠) .

وليس الذين يتهموننى زوراً فى حالة أفضل من حالهم . فإن عقابهم الذى نالوه هو أنهم لا يشعرون بسخف تفكيرهم ، يهرفون بما لا يعرفون بجنونهم ، و يظنون أيضاً أنهم يعلمون . ان كل معرفتهم قاصرة على فعل الشرور الأغراق كل يوم فى الشرور . فهم مثلاً لا يلوموننا على هربنا اليوم بقصد الحث على الشجاعة ، ولكن تأو يلهم العقيم ينتشر فى تعليقات جوفاء : إنهم و يا لهم من سذج مساكين حقاً ، يظنون أننا نضطر إزاء ما ينفثه لسانهم يوماً ما نلقى بأنفسنا فى أيدهم . هذه هى امنيتهم الخفية ، وهى مصدر اضطرابهم وتفكيرهم القلق ، يدّعون أنهم أصدقاء و يتشدقون مثل الأعداء . إنهم يريدون التخلص منا لأننا حكمنا على كفرهم ولا نفتر عن الحكم عليه ، ولن نكف عن محاربة هرطقتهم واداناتها .

✽✽✽

ضحايا الإضطهاد

من ذا الذى لم يطاردوه ويمسكوه و يعاملوه معاملة غير لائقة كما راق لهم ؟ من ذا الذى لم يفتشوا عنه و بعد أن وجدوه ، لم يميتوه شر ميتة ، أو يجعلوه عاجزاً عجزاً كاملاً ؟

قد يقال أن ذلك كان إجراء المحاكم ؛ والواقع أنهم المحرضون ؛ أو بالحرى أن القضاة وضعوا أنفسهم فى خدمة مخططاتهم ورذائلهم . هلا توجد منطقة لم تتأثر بمكرهم ؟ هلا يوجد خصم لهم لم يكن ضحية مؤامراتهم بتلفيقات مصطنعة على طريقة ايزابل ؟ هل هناك كنيسة اليوم ليست فى حداد على أسقفها الذى يعانى من مؤامراتهم ؟ إنطاكية من أجل « اسطاث » المعترف Eustathe بطل الأرثوذكسية ، و « بالانيه » Balanea من أجل « افراتيون » ، وكذا « بالتوس وانترادوس » من أجل « كيماتيوس وكارتيريوس » ، ثم « اندريانوبوليس » من أجل « اوتروب » Eutrope حبيب المسيح ، ومن أجل « لوسيوس » Lucius خلفه الذى قيدوه أكثر من مرة بالسلاسل ومات فى قيوده ، و« انسير» Ancyre من أجل مارسيل ، و« بيرى » من أجل « كيروس » Kyros وغزّه ومن أجل « أسكليباس » Ascléps

كل هؤلاء الرجال الذين أسيئت معاملتهم قد نفاهم أعداؤهم بالخديعة والمكر . أما بخصوص أسقفى « تراس » Thrace وأما نحن أنفسنا وكهنتنا ، فقد طاردونا وهم مصممون على الإنتقام بقتلنا فى حالة نجاحهم . ولولا هروبنا الذى أفسد خططهم مرة أخرى لكنتا إنتهينا سريعاً . لأن ذلك كان حقاً مضمون الخطابات التى سلمت بعضها للحاكم « دونات » DonaT من أجل الفصل فى قضية « اوليبوس » Olympios وسلمت بعضها الآخر ضدنا إلى « فيلاجريوس » . والدليل على ذلك أنه فيما يختص بأسقف القسطنطينية بولس ، داخل مدينة « كوكوز» فى كبادوكية : وكان المنفذ الرئيسى هو « فيليب » الوالى القديم الذى كان متبنى رسمياً هرطقتهم و يضع نفسه فى خدمة مشروعاتهم الفاسدة .

ولكن بعد تلك السلسلة من الجرائم ،هل اكتفوا وسكتوا منذ ذلك الحين ؟ - كلا البتة . لم يكتفوا بهذا ، بل مثل « ماصّة الدماء » التى نتكلم عنها الأمثال : « للعلوقة (١) بنتان هات هات . ثلاثة لا تشبع . أربعة لا تقول كفى » (أم ٣٠ : ١٥) ، أنهم يتشبثون بالشر، ويهاجمون الكنائس الكبرى . من يستطيع أن يصف بالضبط الجرائم

(١) أو العلوة

التى اقترفوها أخيراً ؟ بينما كانت الكنائس تعيش فى سلام ، والشعب يصلى فى الإجتماعات للإفخارستية ، حضروا لينزعوا الأساقفة القديسين عن كراسيهم و يطردوهم و ينفوهم ، وهم حلة كلمة الحق ، مثل رئيس أساقفة رومية « ليبر » *Libère* ، و« بولان » *Paulin* رئيس أساقفة الغال (فرنسا) ، و« دنيس » *Denys* رئيس أساقفة إيطاليا ، و« لسفير » *Lucifer* رئيس أساقفة جزر « ساردس » *Sardes* و« اوسابيوس » أسقف إيطاليا . لم يكن عليهم شىء سوى أن هؤلاء الرجال ليسوا من أتباع الهرطقة الأريوسية ولم يشتركوا فى الوشايات التى اخترعوها ضدنا .

ولست فى حاجة إلى أن أتكلم بدورى عن الشيخ العظيم الجليل المعترف بالإيمان « اوسيوس » المبارك ، لأنه يبدو أنه لا يوجد من يجهل أمر نفيه على أثر حملاتهم وليس هذا بالشخص غير المعروف ، لكنه أحق الناس فى أن يمثّل الجميع ، من القدماء البارزين . فهل يوجد مجمع لم يرأسه ؟ ألم يُفتن العالم بروائع المعانى فى حديثه ؟ هل توجد كنيسة لا تحتفظ بأثمن الذكريات من تأملاته ؟ هل قابله أحد وهو يبكى بدموع وتركه دون أن يتعزّى ؟ هل التمس منه أحد شيئاً وعاد صفر اليدين ؟

ومع كل هذا فقد تجاسروا على التهجم عليه لعدم إشتراكه مؤامراتهم ضدنا . وقعت الضربات المتكررة التى كانوا يكيلونها له وعند رؤية إضطهاد ذويه لم يقاومهم وتركهم فى شرهم . فاذا كان يستطيع أن يفعل الشيخ العانى ؟ ولكن قد إنفضح شرهم عندما تشبثوا بتماديهم فى أفعالهم من هذا القبيل ليظهروا فى كل مكان أنهم ليسوا حقاً مسيحيين .

إضطهاد الشعب

فبعد قليل عادوا إلى الإسكندرية يحاولون أيضاً أن يقتلونا. كان الموقف حرجاً أكثر من أى وقت. وفجأة تدخل قوة من الجنود الكنيسة، و يعلوا صراخ الحرب على صوت الصلاة. أثناء الصوم الكبير، يدخل رسولهم « چورج » آتياً من كبادوكية، و يفوق مكره دروس معلميه. فبعد أسبوع البصخة، يقتاد الجنود الأساقفة مكبلين، و يلقون العذارى فى السجن، و يأخذون بيوت اليتامى والأرامل وأقواتهم، و يقتحمون المنازل للتفتيش، و يقتادون المسيحيين ليلاً، و يهمون الأختام على المنازل، وتصير عائلات الاكليركيين فى خطر بسبب أقاربهم.

ولكن فضلاً عن كل هذه الفظائع، لم يقف تجاسرهم عند هذا الحد. ففى يوم الأحد الأول بعد العنصرة، حضر الشعب أول الصوم للصلاة بالقرب من المدافن. وكانوا جميعهم يكرهون شركة « چورج ». وعلم البائس بالأمر، فأثار حمية أحد الضباط و يدعى « سباستيان » Sebastien وكان « منيكياً » Manicheen. وفى الحال اصطحب قوة من الجنود المسلحين، يحملون سيوفاً مسلولة ومعهم أقواسهم وسهامهم، وانقض على الشعب. وفى الواقع لم يجد سوى بعض المصلين - لأن معظم الناس قد رجعوا لفورهم إذ كان الوقت متأخراً - وأتى ما يمكن أن يتوقع من رجل مأجور. لقد أشعل ناراً كبيرة، وأحضروا العذارى، وأراد منهن أن يقررن أنهن يشتركن فى إيمان أريوس. ولكن عند رؤية مقاومتهن الجبارة، وعدم مبالاتهن بالنار، أمر بنزع ملابسهن وضربهن على وجوههن إلى أن يفقدن ملامحهن.

أما الرجال، فقد نجح فى القبض على أربعين منهم وأمر بضربهم بطريقة لم يتبعها أحد، فكانوا يضربونهم بسعف النخل المقطوع حديثاً، بالأغصان المملوءة أشواكاً؛ فمزق ظهورهم بقسوة واحتاج الكثيرون لعمل عمليات جراحية متكررة بسبب الأشواك المغرسة فى أجسادهم، ومات بعضهم متأثراً بجراحهم. ثم أرسل كل الذى قبض عليهم دفعة واحدة ومعهم العذارى إلى الواحة الكبرى.

ومع ذلك لم يسلّم أجساد الضحايا إلى عائلاتهم فى حينه، بل خبأها الجلادون كما أرادوا، وتركوها دون أن تدفن؛ وهم يتخيلون أنه يمكنهم المغالطة بشأن قساوتهم التى نعجز عن تسميتها. هذا ما كان يصنعه هؤلاء المجانين، وقد محيت عقولهم. أما الأهالى، فبينما هم

يتهللون لاستشهاد ذويهم ، كانوا يبكون على إختفاء الأجساد ، واعترضوا على كفرهم وفسادهم الزائدة .

وفى نفس الوقت نفوا عن مصر وليبيا الأساقفة والكهنة وطردوهم بعد أن عاملوهم معاملة سيئة جداً لدرجة أن بعضهم لم يتحمل مشاق الطريق ، ومات الآخرون عندما وصلوا إلى المنفى . بهذه الطريقة طرد أكثر من ثلاثين أسقفاً ، فى عناد كعناد آخاب ، يحاولون أن يلبسوا الباطل ثوب الحق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . هذه هى فظائع هؤلاء الكفرة .

يكون الإنسان مظلوماً خير من أن يكون ظالماً

وفى افتراضاتهم هذه ، ودون خجل من المؤامرات الأولى التى حاكوها ضدنا ، يتهموننا أيضاً بأننا استطعنا الإفلات من أيديهم الآثمة . وأكثر من ذلك ، أنهم يتميزون غيظاً لأنهم لم ينجحوا فى التخلص منا ، و يرموننا بالنكوص ، ولا يردون أنهم بذلك إنما يردون كيدهم إلى نحرهم ، لأنه إذا كان ذلك أمراً مخجلاً ، فإن ما أتوه من المظالم جرم أعظم . يتركونهم لينجوا من الموت ، فيدبر الظالمون للقتل .

وإن الكتاب المقدس يأمر بالهروب : « ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى » (مت ١٠ : ٢٣) . وأما الذى يصر على القتل يتعدى الناموس ، وكفى بذلك عذراً لهارب . فإن كان أعداؤنا يفترون علينا لأننا ولينا عنهم فكان الأحرى بهم ألا يلوموا إلا أنفسهم بما كانوا يظلمون . فليكفّوا عن التآمر ، وحينئذ تمتنع القلاقل .

ولكنهم يبتعدون عن الاعتراف بجرائمهم، يرتبون كل شىء من أجل الإضطهاد، وهم بذلك ينسون أن المضى عنهم إنما هو فى الواقع حجة ضد الظالمين. وفى الواقع لا يهرب المرء من الشخص الوديع الذى يمكن التعامل معه، بل يهرب من الشرس ذى الطباع الفاسدة. فكان على سبيل المثال البؤساء والمديونون يهربون من شاول لكى يحتموا بالقرب من داود: «واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مرّ النفس فكان عليهم رئيساً» (١صم ٢٢: ٢).

إن الظالمين يحرصون أيضاً على إبادة ضحاياهم المختبئين لكى يمحوا آثار فعلتهم. ولكن يبدو أن هؤلاء المجانين المساكين مقيمون فى عماهم. لأنه كلما برز أثر الهروب، تفضح دسائسهم بالموت أو النفى الذى سببوه لضحاياهم، و يعود ذلك بضرر أكبر عليهم أمام الرأى العام؛ فهم ينشرون أعمال شرهم فى أنحاء العالم.

لقد صار كل تجاسر أمراً طبيعياً بالنسبة لهم حتى أنه لا يبقى سوى القليل حتى يتجاسروا بالقاء اللوم على العناية الإلهية ذاتها لأنها لا تسلّم لهم.

ومن البديهى حسب وعد المخلص، أنه حتى العصفور لا يمكن أن يسقط فى الفخ بدون إذن الآب فى السموات. ولكن منذ اللحظة التى

فيما يركز هؤلاء المتعسّفون إهتمامهم على أحد، ينسون العالم جميعه وقبل كل شىء ينسون أنفسهم: ولا ينصتون إلاّ لكبريائهم، و يعبسون وجوههم، ولا يعملون حساباً لأية ظروف؛ وفى تهديدهم للناس لا يحترمون أى ناموس طبيعى، بل بالعكس يتمثلون بطاغية بابلون فيتمسكون بضحيتهم بأكثر شراسة أيضاً. لا تمس قلبهم الرحمة، بل يزيدون حمل الشيخ، وتثير قساوتهم ألم الجراح.

إن كانوا لم يرتكبوا كل هذه الجرائم مجتمعة، أو لم ينفوا اتباعنا الذين يكشفون إفتراءاتهم، لكانت إدعاءاتهم تجد أذاناً صاغية. ولكنهم قد هاجموا كل هؤلاء الأساقفة المبجّلين، ولم يستثنوا من ذلك ولا حتى أوسيوس Ossius الكبير المعترف، ولا أسقف روما، وآخرين كثيرين فى أسبانيا والغال (فرنسا) ومصر وليبيا وجهات أخرى. فكيف لا يقومون ضدنا قبل أى إنسان آخر؟ فبعد ضحاياهم الأول، يريدون القضاء علينا حتى ولو كنا فى الصحراء، يتربصون بنا الخطى و يشعرون بالضيق حالما يرون أحياء كانوا يريدونهم فى عداد المائتين.

فهل يمكن التغافل عن مكرهم؟ وربما يخطىء أحد فيظن أن الفضيلة هى التى تدفعهم إلى ذم الجبن؛ بل التعطش إلى الدماء هو

الذى يدفعهم إلى أن يحيكوا مؤامراتهم مثل عُقَد الشبكة ، على أمل أن يروا الذين يرومون هلاكهم يسقطون فيها .

هكذا أظهرتهم أعمالهم ، وهكذا إنكشفت قلوبهم وهى أكثر شراسة من قلوب الوحوش ، وأكثر قساوة من قلب البابليين .

إن الحجة التى نسوقها فى هذه الإعتبارات فيها من القوة الذاتية ما يكفى ومع ذلك فيا إنهم يقلّدون آباءهم الشيطان ، وبما أن لغتهم المعسولة قد خدع عندما يقولون رأيهم فى الجبن ، وهم أنفسهم أكثر جبناً من الأرانب البرية ، فلنتأمل فيما يقوله الكتاب المقدس فى هذا الموضوع . وسيظهر بهذا أنهم أعداء الكتاب المقدس ناكرو فضيلة القديسين . لأنه إن كانوا يهاجمون كل الذين اختبأوا أمام محاولات القتل التى صوبت ضدهم ، وإذا كانوا يدينون كل الذين هربوا من مضطهديهم ، فهم يرمون يعقوب الهارب من أخيه عيسو ، وموسى اللاجىء إلى مديان خوفاً من فرعون ؟ كيف يستطيعون أن يدافعوا عن داود بمنطقهم الفاسد : لقد ترك بيته ، وهرب من شاول الذى أمر بقتله ، واختبأ فى الكهف من أمام وجهه . وتنكّر حتى عثر على أثر ابيمالك .

ماذا يقول هؤلاء الناطقون بالكلمات المعسولة عند نظرهم إيليا النبى العظيم الذى سمح الله له ، الذى أقام الميت ـ يختبىء أمام

آخاب ، ويهرب أمام تهديدات ايزابل ؟ إننا نرى أيضاً أولاد الأنبياء يختبئون فى المغائر فى نفس الزمن ، خوفاً من عوبديا : « وكان حينما قطعت ايزابل أنبياء الرب أن عوبديا أخذ مئة نبى وخبأهم خمسين رجلاً فى مغارة وعالهم بخبز وماء » (١مل١٨ : ٤) .

ربما لا يعلمون شيئاً عن هذه الروايات القديمة ، ولكن وقائع الإنجيل لا تبدو أيضاً حاضرة فى أذهانهم . إن التلاميذ أنفسهم قد اختبأوا خوفاً من اليهود : « وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود » (يو٢٠ : ١٩) ؛ و بولس الرسول فى دمشق إذ كان يطارده الوالى تدلى من السور فى زنبيل ليهرب من يدى مضطهده : « فى دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكنى فتدلّيت من طاقة فى زنبيل من السور ونجوت من يديه » (٢ كو١١ : ٣٢-٣٣) .

فإذا كان الكتاب المقدس يروى مثل هذه الوقائع بخصوص القديسين ، فأى عذر يمكنهم أن يخترعوه لكى يبرّروا عداءهم ؛ إذا كانوا يبدأون فى إتهام القديسين بالجبن ، فإن افتراءهم يعد جنوناً ؛ إذا كانوا يأخذون عليهم أنهم تصرفوا ضد إرادة الله ، فهم بذلك يظهرون جهلهم بالكتاب المقدس .

كان الناموس يأمر بإنشاء مدن لتكوين ملجأ للناس المحكوم عليهم بالموت ، فيستطيعون بذلك أن يجدوا مكاناً يلجأون إليه : « من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل لك مكاناً يهرب إليه » (خر٢١ : ١٢ : ١٣) . « فتكون لكم المدن ملجأ من الوالى لكيلا يموت القاتل حتى يقف أمام الجماعة للقضاء » (عد ٣٥ : ١٢) .

وفى آخر الأيام ظهر ذلك الذى تكلم مع موسى ، كلمة الآب ، وأعطى نفس الوصية : « ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى » (مت ١٠ : ٢٣) و يقول أيضاً : « فتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس . ليفهم القارىء . فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال . والذى على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئاً . والذى فى الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه » (مت ٢٤ : ١٥ - ١٨) .

إن القديسين كانوا يعرفون ذلك فسلكوا هذا الطريق . إن هذه التوصيات المباشرة من قبل الرب كانت قد أعلنت فى حياة القديسين قبل مجيئه بالجسد . وإن أساس كل كمال فى الناموس هو تحقيق ما يأمر به الله .

ولذلك فإن الكلمة المتأنس ذاته قد رأى أن يختبىء عندما كانوا يفتشون عنه ؛ فيظهر عبء الجسد وحقيقة تأنسه ، وليس فقط الجوع والعطش والألم . فمنذ بداية تجسده مُذْ كان طفلاً صغيراً ، أرسل أوامره بواسطة الملاك إلى يوسف : « قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك . لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه » (مت ٢ : ١٣) ؛ ثم عند موت هيرودس ، نجده يتحاشى ارخيلاوس إبنه و يذهب إلى الناصرة : « ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضاً عن هيروس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك . وإذ أوحى إليه فى حلم إنصرف إلى نواحى الجليل . وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة » (مت ٢ : ٢٢-٢٣) .

و بعد ذلك أيضاً ، بالرغم من أنه برهن على لاهوته وشق اليد اليابسة ، يقول الكتاب : « فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكى يهلكوه . فعلم يسوع وانصرف من هناك » (مت ١٢ : ١٤-١٥) .

وأيضاً فى وقت لعازر ، يقول الإنجيل : « فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه . فلم يكن يسوع أيضاً يمشى بين اليهود علانية بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها افرايم ومكث هناك مع تلاميذه » (يو ١١ : ٥٣-٥٤) .

وأيضاً فى اليوم الذى أعلن فيه المخلص قائلاً : « قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن . فرفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً فى وسطهم ومضى هكذا » (يو٨ : ٥٨-٥٩) ، « أما هو فجاز فى وسطهم ومضى » (لو٤ : ٣٠) .

يرون كل ذلك ، أو بالحرى يسمعونه لأنهم قد فقدوا البصر ، و يريدون الآ يكونوا طعاماً للنار حسب المكتوب : « لأن كل سلاح المتسلح فى الوغى وكل رداء مدحرج فى الدماء يكون للحريق مأكلاً للنار» (أش٩ : ٥) . يفكرون فى مبادىء مضادة لتعاليم وحركات المخلص و يعلنونها . مثلاً بعد شهادة يوحنا عندما دفن التلاميذ جسده ، علم يسوع : « فلما سمع يسوع إنصرف من هناك فى سفينة إلى موضع خلاء منفرداً » (مت١٤ : ١٣) . هذه من تنقلات الرب ، وهى متفقة مع تعليمه .

يا ليت هؤلاء الناس يستحون من ذلك فيحصرون هجماتهم على الناس ، دون أن يمضوا فى الجنون لدرجة لوم المخلص بالجبن آخذين على أنفسهم وزر التجديف ضده . حسن أن أحد لن يأخذ على نفسه مهمة الدفاع عن مثل هؤلاء المجانين .

إن سبب هذا الإنصراف الذى تكلم عنه الإنجيليون بالنسبة للمخلص ، جدير بأن نطبّقه على هروب كل القديسين ، لأن ما هو مكتوب عن المخلص بالنسبة لتأنسه يمكن تطبيقه على كل جنس البشر ، لأنه أخذ جسدنا وأظهر فيه ضعف البشرية . و يوحنا البشير يشرح ذلك فيقول : « فطلبوا أن يمسكوه . ولم يلق أحد يداً عليه لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد » (يو٧ : ٣٠) . وقبل أن تأتى تلك الساعة كان هو نفسه يقول لوالدته : « مالى ولك يا امرأة . لم تأت ساعتى بعد » (يو٢ : ٤) . وقال للذين كانوا معروفين كأخوة له : « لأن أخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به . فقال لهم يسوع أن وقتى لم يحضر بعد » (يو٧ : ٥-٦) . وعندما جاء الوقت ، كان يقول لتلاميذه : « ناموا الآن واستريحوا . هوذا الساعة قد اقتربت وابن الإنسان يسلّم إلى أيدى الخطاة » (مت٢٦ : ٤٥) .

العناية الإلهية

إن الله كلمة الآب ، لم تكن له ساعة ينتهزها وهو خالق الأزمنة ؛ ولكن إذ تأنس فإنه يستعمل هذه العبارات لكى يبين أن لكل إنسان وقتاً محدوداً ، وليس الأمر حسب الصدفة كما يزعم بعض اليونانيين فى رواياتهم ، ولكنه حسب ما تقرر لكل واحد كإرادة الآب ، وهو الخالق .

إن الكتاب المقدس يتكلم عن ذلك ، وليس فيه صعوبة بالنسبة لأحد . هناك بالتأكيد سر لا يمكن لأحد أن يفهمه فيما يتعلق بالزمان المحدود لكل إنسان ؛ ومع ذلك فكل واحد يعرف أن لكل موسم وقته ، الربيع والصيف والخريف والشتاء ؛ كذلك حسب الكتاب المقدس للموت وقت وللحياة وقت : « للولادة وقت وللموت وقت . للغرس وقت ولقلع المغروس وقت » (جا٣ : ٢) .

ولهذا يمكننا أن نقول أن جيل نوح وجد وقته يقصر : « فقال الله لنوح نهاية لكل بشر قد أتت أمامى . لأن الأرض إمتلأت ظلماً منهم . فها أنا مهلكهم مع الأرض » (تك٦ : ١٣) وكأن الأجل المحدود لكل واحد كان يقترب ، فنقصت سنو الحياة .

وعلى النقيض من ذلك ، اضيفت خمس عشرة سنة إلى حزقيا : « اذهب وقل لحزقيا . هكذا يقول الرب إله داود أبيك . قد سمعت صلاتك . قد رأيت دموعك . هأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشر سنة » (أش٣٨ : ٥) .

ووعد الله الذين يخدمونه بإخلاص بزيادة أيام حياتهم . ومات إبراهيم شبعان أياماً : « وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخا وشبعان أياماً وانضم إلى قومه » (تك٢٥ : ٨) .

و يطلب داود بهذه العبارات : « **اقول يا إلهى لا تقبضنى فى نصف أيامى** » (مز١٠٢ : ٢٤) .

وأليفاز أحد أصدقاء أيوب ، إذ كان متعلماً يقول بدوره : « تدخل المدفن فى شيخوخة كرفع الكدس فى أوانه » (أى٥ : ٢٦) .

وسليمان الحكيم يقول : « أما سنو الأشرار فتقصر » (أم١٠ : ٢٧) . لذلك أيضاً يحذر فى سفر الجامعة قائلاً : « لا تكن شرير اً كثيراً ولا تكن جاهلاً لماذا تموت فى غير وقتك » (جا٧ : ١٧)

إذن حسب هذه الأقوال ، يريد الله الكلمة أن يبيّن أن القديسين لا يجهلون أن لكل إنسان وقتاً محدوداً . ولكن لا أحد يعرف الأجل المحدود . بدليل طلبة داود النبى : « إحصاء أيامنا هكذا علمنا فنؤتى

قلب حكمة » (مز٩٠: ١٢) . « عرّفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فأعلم كيف أنا زائل » (مز٣٩: ٤) . كان يريد أن يعلم ما كان يجهل .

ولنفس السبب سمع الغنى الذى كان يتصوّر أن له زماناً طويلاً يحياه أيضاً : « يا غبى هذه الليلة تطلب نفسك منك . فهذه التى أعددتها لمن تكون » (لو١٢: ٢٠)

و يقول الجامعة بوحى من الروح القدس : « لأن الإنسان أيضاً لا يعرف وقته » (جا٩: ١٢) .

ولنفس السبب أيضاً كان يقول أبو الآباء إسحق لإبنه عيسو : « إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى » (تك٢٧: ٢) .

هكذا كان الرب الإله كلمة الآب يعرف الوقت الذى حدّده لكل إنسان ، وكان يعرف الوقت الذى حدده ليتألم . فإذ تأنس لأجلنا ، كان يختفى كل الوقت الذى سبق الوقت المحدد عندما كانوا يبحثون عنه ؛ وعندما كانوا يطاردونه كان يمضى ؛ كان يفسد مؤامراتهم : « أما هو فجاز فى وسطهم ومضى » (لو٤: ٣٠) . ولكن عندما أتى الوقت الذى حدده ، والذى اختاره لكى يتألم فيه عن الجميع ، حينئذ قال لأبيه : « أيها الآب قد أتت الساعة مجد إبنك »

(يو١٧: ١) منذ ذلك الحين لم يختفِ عن الذين يبحثون عنه ، ولكنه إذ كان واقفاً تركهم يأخذونه . يقول الإنجيل إنه خاطب الجمع الذى حضر ضده قائلاً : « من تطلبون . أجابوه يسوع الناصرى . قال لهم يسوع أنا هو . » (يو١٨: ٥) . وذلك ليس مرة واحدة ، بل مرتين . وهكذا أتوا به إلى بيلاطس .

إذن لم يسمح أن يمسكه أحد قبل الوقت . ولكن لما أتت الساعة ، ولم يختبىء بعد ، وأسلم ذاته لأيدى المضطهدين لكى يبين للجميع أن حياة الناس وموتهم تتوقف على الحكم الذى من فوق ، وإنه بدون إذن الآب الذى فى السموات ، لا يمكن أن تصير شعرة واحدة من رأس إنسان بيضاء أو سوداء ، ولا أن يسقط عصفور فى الفخ : « ولا تحلف براسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء » (مت٥: ٣٦) « أليس عصفوران يباعان بفلس . وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم » (مت١٠: ٢٩) .

إذن فقد أسلم الرب ذاته من أجل الجميع فى الظروف التى ذكرناها الآن . والقديسون من جانبهم قد اقتدوا بالمخلص ، أو تلقوا دروسهم فى مدرسته ؛ وجاهدوا ضد مضطهديهم ، فكانوا يهربون عندما يلزم الهرب ، ويختبئون عندما يطاردونهم . كانوا كبشر يجهلون الأجل الذى حدّدته لهم العناية الإلهية ، فلم يريدوا أن يسلّموا

أنفسهم إلى مضطهديهم ببساطة دون مقاومة . وكانوا من جهة أخرى يعرفون الكتاب المقدس الذى يقول : « فى يدك آجالى . نجنى من يد أعدائى ومن الذين يطردونني » (مز٣١ : ١٥) . « الرب يميت ويحيى . يهبط إلى الهاوية و يصعد » (١صم٢ : ٦) .

وأكثر من ذلك كانوا يقاومون حتى النهاية حسب قول بولس الرسول : « طافوا فى جلود غنم وجلود معزى معتازين مكروبين مذلّين » (عب١١ : ٣٧) إلى نهاية الأجل المحدد لموتهم ، سواء أكان الله الذى حدده قد كلمهم وهدأ الإضطهاد ، أم سلم الهاربين إلى جلاديهم ببساطة ، كما يرى ذلك حسناً .

إن هذا الدرس العام فى تطبيقه يمكننا أن نستخلصه جيداً من مثل داود النبى خاصة : « وقال داود حتى هو الرب إن الرب سوف يضربه أو يأتى يومه فيموت أو ينزل إلى الحرب ويهلك . حاشا لى من قبل الرب أن أمدّ يدى إلى مسيح الرب » (١صم٢٦ : ١٠-١١) .

إن كان القديسون أحياناً يسلّمون أنفسهم إلى مطارديهم ، فإنهم ما كانوا يفعلون ذلك لأنهم تعبوا من الحرب : كان الروح القدس يكلمهم وكانت محبة الله هى التى تجعلهم يسلّمون أنفسهم ؛ و بذلك كانوا يظهرون مرة أخرى وداعتهم وحيّتهم . هكذا فعل إيليا النبى

عندما تقدم إلى آخاب بأمر الروح القدس : « لما رأى آخاب إيليا قال له آخاب أأنت هو مكدر إسرائيل » (١مل١٨ : ١٧) .

وهكذا فعل ميخا النبى عندما ذهب إلى آخاب نفسه : « ولما أتى إلى الملك قال له الملك يا ميخا أنصعد إلى راموث جلعاد للقتال أم نمتنع . فقال له اصعد واقلح فيدفعها الرب ليد الملك » (١مل٢٢ : ١٥) .

وهكذا فعل النبى الذى لعن هيكل السامرة وجعل يربعام يؤمن : « وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت ايل و يربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد . فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال يا مذبح هكذا قال الرب هوذا سيولد لبيت داود إبن إسمه يوشيا و يذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتُحرق عليك عظام الناس » (١مل١٣ : ١ ، ٢) .

وهكذا فعل بولس الرسول عندما رفع دعواه إلى قيصر : « لأنى إن كنت آثماً أو صنعت شيئاً يستحق الموت فلست استعفى من الموت . ولكن إن لم يكن شىء مما يشتكى علىّ به هؤلاء فليس أحد يستطيع أن يسلّمنى لهم . إلى قيصر أنا رافع دعواى » (أع٢٥ : ١١) .

بديهى إذن إنه لم يكن الخوف هو الذى دفعهم إلى الهرب .

بالتأكيد لا. كان الهروب بالحرى كتدريب لهم إستعداداً للموت. كانوا ينفذون فكرتين وكان هذا تصرفاً حكيماً. أولاً كانوا يرفضون فكرة تسليم أنفسهم بلا جدال، لأن هذا يعد انتحاراً؛ ولو فعلوا لكانوا حينئذ مسئولين عن موتهم، ولكانوا قد تعدّوا وصية الرب. ومن جهة أخرى كانوا مصممين على ألاّ يتخاذلوا، ولو فعلوا لكانوا يظهرون كأنهم قد ضعفوا أمام رؤية تجارب النفي والآلام التي هي أكثر من الموت وأفظع منه. لأنه عندما يموت الإنسان تنتهي التجربة؛ أما على النقيض من ذلك، عندما يهرب الإنسان، فإن كل يوم يجلب له القلق من مصائد العدو، لدرجة أنه يعتبر الموت أقل تعباً.

لذلك لا يجب على ضحايا النفي أن يظلّوا في الموت دون مجد، بل يتمتعوا أيضاً بلقب الشهادة المجيد. لذلك أشتهر أيوب بإحتماله عندما احتمل الحياة بكل هذه المحن المختلفة. ولو مات ما كان قد شعر بأقل شيء. ولهذا السبب إعتزم الآباء القديسون الحياة باسلوبهم وعندما كانوا يُطارَدون ما كانوا يخافون، بل بالأحرى يظهرون قوة أرواحهم في حبسهم، يأوون في الأمكنة الضيقة المظلمة. كانوا يقسون على أنفسهم حتى إذا حان وقت الموت، ما كانوا يرفضونه؛ لأنهم ما كانوا يفكرون أبداً في الخوف من الموت، أو في عمل شيء لا يتفق مع قرار العناية الإلهية. أو أن يعاندوا المصير الذي يعرفون أنفسهم أنهم

مقدسون له خوفاً من الإندفاع في التصرف الذي يجعلهم هم أنفسهم سبباً في تحقيق ما يخشونه.

و يقول الكتاب المقدس: «من يحفظ فمه يحفظ نفسه. من يشحر شفتيه فله هلاك» (أم١٣: ٣) «فم الجاهل مهلكة له وشفتاه شرك لنفسه» (أم ١٨: ٧).

ليس الهروب جبناً فى كل الحالات

بالاختصار و بلا شك ، كانوا راسخين فى الفضيلة وأقوياء : هذا ما لا يستطيع إنسان على الأرض أن ينكره . إن أبا الآباء يعقوب الذى هرب أولاً أمام عيسو ، لم يخش الموت عندما جاءه (تك ٤٩) ، بل كان هذا هو الوقت الذى اختاره لكى يبارك الآباء كل واحد ببركة خاصة .

وموسى النبي العظيم ذهب أولاً إلى مديان لكى يختبىء من فرعون ؛ ولكن عندما صدر إليه الأمر بالعودة إلى مصر هدأت مخاوفه : « فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر » (خر ٣ : ١٠) . ثم إذ صدر إليه الأمر من جديد أن يصعد على جبل عباريم لكى يموت هناك ، لم يتقهقر مرتعداً ، بل صعد إليه بفرح : « اصعد إلى جبل عباريم هذا جبل نبو الذى فى أرض موآب الذى قبالة اريحا وانظر أرض كنعان التى أنا أعطيها لبنى إسرائيل ملكاً . ومت فى الجبل الذى تصعد إليه وانضمّ إلى قومك كما مات هرون أخوك فى جبل هور وضمّ إلى قومه » (تث ٣٢ : ٤٩ - ٥٠) .

وداود النبي بدوره الذى هرب أولاً أمام شاول ، لم يتردد فى أن يعرّض نفسه لأخطار الحرب من أجل شعبه (٢ صم ٢٤) بل عندما خيّروه بين الموت وبين الهروب مع إمكانية النجاة والحياة ، فضّل فى حكمته الموت .

وإيليا النبي الشهير ، الذي اختبأ أولاً أمام إيزابل ، لم يتردد هو أيضاً عندما دعاه الروح القدس ، فى أن يقاوم آخاب ويحكم على أخزيا : « فقال ملاك الرب لإيليا إنزل معه . لا تخف منه . فقام ونزل معه إلى الملك » (٢ مل ١ : ١٥) .

والقديس بطرس الرسول الذى اختبأ خوفاً من اليهود والقديس بولس الذى تدلّى فى زنبيل لكى يهرب ، حالما يقال لهما : « وفى الليلة الثانية وقف به الرب وقال ثق (يا بولس) لأنك كما شهدت بما لى فى أورشليم هكذا ينبغى أن تشهد فى رومية أيضاً » (أع ٢٣ : ١١) ، حالاً دون تأجيل ، بل بالأحرى بفرح ، وكأنه متعجّل لرؤية أهله ، يبتهج فرحاً عند فكرة الموت ؛ والآخر لا يفزع عندما يقترب الوقت ، بل يتحمّس ويهنىء نفسه قائلاً : « فإنى أنا الآن أسكب سكيباً ووقت انحلالى قد حضر » (٢ تى ٤ - ٦) .

بكل هذا يبيّن جيداً أن هروبهم لم يكن إختفاءً وجبناً ، وسلوكهم

الأخير لم يكن راجعاً إلى عمل فانٍ ؛ ولنا فى ذلك برهان ساطع على فضيلتهم الرائعة وقوتهم . لأن انتصارهم كان بعيداً عن دافع إتخاذ الجانب السهل ؛ بل على العكس كان فرصة لتصاعد جهادهم النسكى . وما كان الناس ينظرون إليهم كهاربين ، وما كانوا يسمعون أحداً من نوع محاربينا يتهمهم بالجبن . بل أيضاً باركهم الرب قائلاً : « طوبى للمطرودين من أجل البر » (مت٥ : ١٠) . ولم تكن مثل هذه التجربة دون فائدة لهم ، لأنهم إذ جُرّبوا مثل الذهب فى الأتون كقول سفر الحكمة : « لأن الله إمتحنهم ووجدهم مستحقين له » (حك٣ : ٥) ، حسبهم الله أهلاً له ؛ وتراهم يتألقون بنار أقوى ، ثم يتحررون من مضطهديهم ، و ينجون من المضايقات ، محفوظين سالمين أصحاء لأجل بنيان الشعوب . لذلك فإن هربهم قد أفسد خطط المضطهدين الغاضبين ، وكان متفقاً مع إرادة الرب . وصاروا بذلك أحباء الله وشهدوا أروع شهادات البطولة .

إن أبا الآباء يعقوب مثلاً وجد نفسه مكافأ أثناء هروبه برؤى كثيرة جاءت من الله ؛ وحتى فى الصحراء كان يتمتع بحماية الرب الذى غيّر لابان و بدد مشروعات عيسو (تك ص ٣١، ٣٢) ؛ و بعد ذلك صار أباً ليهوذا جد الرب حسب الجسد ، وأعطى بركة لكل واحد من الآباء .

وموسى أيضاً حبيب الله ، رأى أثناء هروبه رؤية عظيمة (خر٣) ؛ ثم إذ أنقذ من أعدائه عاد إلى مصر برسالة النبوة ، وصار بعد ذلك صاحب العجائب العظيم الشرع رئيس الشعب الكبير فى الصحراء .

وداود النبى بدوره عندما كان مطارَداً يعطينا نفس التعاليم ، بقول : « فاض قلبى بكلام صالح » (مز٤٥ : ١) ، « يأتى إلهنا ولا يصمت . نار قدامه تأكل وحوله عاصف جداً » (مز٥٠ : ٣) ، وكان يشعر أنه أقوى عندما كان يقول : « وتبصر عينى بمراقبىّ . و بالقائمين علىّ بالشر تسمع أذناى » (مز٩١ : ١١) ، « على الله توكلت فلا أخاف . ماذا يصنعه بى الإنسان » (مز٥٦ : ١١) . ولما إضطر إلى الهروب من أمام شاول واختبأ فى المغارة كان يرنم قائلاً : « يرسل من السماء ويخلّصنى . عيّر الذى يتهمنى . سلاه . يرسل الله رحمته وحقه . نفسى بين الأشبال » (مز٥٧ : ٣ : ٤) . وهو أيضاً بعد أن خلص حسب تدبير العناية الإلهية ، صار ملكاً وأخذ الوعد بأن يرى ميلاد ربنا من نسله .

إيليا النبى العظيم أيضاً ، عندما لجأ إلى جبل الكرمل ، صرخ إلى الله ، و بعد أن انتصر وحده على أنبياء البعل ، وعددهم أكثر من أربعين ، استقبل الضابطين والمائة رجل أتباعهم الذين أُرسلوا ضده .

بصراخه قائلاً : « فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد وأرسل إليه رئيس خمسين آخرين والخمسين الذين له . فأجاب وقال له يا رجل الله هكذا يقول الملك اسرع وإنزل . فأجاب إيليا وقال لهم إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له » (٢مل١ : ١٠-١٢) ؛ ووجد نفسه سالماً حتى استطاع أن يمسح أليشع بدلاً منه ؛ وظهر أيضاً كنموذج للنسك بالنسبة لأبناء الأنبياء .

وكتب بولس الطوباوى : « الذى نجّانا من موت مثل هذا وهو ينجّى . الذى لنا رجاء فيه أنه سينجّى أيضاً فيما بعد » (٢كو١ : ١٠) ؛ ووجد قوة جديدة ليقول : « من سيفصلنا عن محبة المسيح . أشدّة أم ضيق أم إضطهاد أم جوع أم عرى أم خطر أم سيف . كما هو مكتوب أننا من أجلك نمات كل النهار . قد حُسبنا مثل غنم للذبح . ولكننا فى هذه جميعها يعظم إنتصارنا بالذى أحبّنا » (رو٨ : ٣٥-٣٧) .

وفى ذلك الحين اختُطف إلى السماء الثالثة وحمل إلى الفردوس ليسمع كلمات لا ينطق بها ولم يعط للإنسان أن يعيد قولها : « أعرف إنساناً فى المسيح قبل أربع عشرة سنة أفى الجسد لست أعلم أما خارج

الجسد لست اعلم . الله يعلم . اختُطف هذا إلى السماء الثالثة وأعرف هذا الإنسان أفى الجسد أم خارج الجسد لست اعلم الله يعلم . إنه اختُطف إلى الفردوس وسمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها » (٢كو١٢ : ٢-٤) ، ولأجل هذا حُفظ فى ذلك الحين لكى يكمل تبشيره من أورشليم إلى اقاصى الليريكون : « بقوة آيات وعجائب بقوة روح الله . حتى أنى من أورشليم وما حولها إلى الليريكون قد أكملت التبشير بإنجيل المسيح » (رو١٥ : ١٩) .

ملخص الحجج

لا يمكن إذن أن نلوم هروب القديسين أو أن نعتبره غير مُجد ؛ لأنه لو لم يكونوا هربوا من الذين يضطهدونهم ، فكيف كان يأتى الرب من نسل داود ؟ ومن هم المنادون الذين يخبرون بكلمة الحق ؟ إن هدف المضطهدين الذين كانوا يطاردون القديسين كان القضاء على كل معلم يقوم بالتعليم ، كما أعلن اليهود ذلك للرسل : « أما أوصيناكم وصيّة أن لا تعلّموا بهذا الاسم . وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان » (أع٥ : ٢٨) .

ولكن الرسل قد احتملوا كل شيء من أجل التبشير بالإنجيل . والدليل على ذلك أنه حتى وسط تلك المعارك ، لم يتركوا أوقات هروبهم تمرّ دون إنتاج ؛ كانوا مطارَدين ، لكن لم ينسوا الخير للقريب ، بل احتفظوا بدورهم فى خدمة التعاليم ، ولم يترددوا فى نشره للجميع . وحتى أثناء هروبهم ، ظلوا ينادون بالإنجيل . كانوا يحذرون من حيل الأعداء ؛ وكانت تعاليمهم تثبّت المؤمنين .

هكذا كان الطوباوى بولس يتكلم عن خبرة عندما أعلن : « وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى فى المسيح يسوع

يُضطهدون » (٢تى٣ : ١٢) ؛ ولكنه يسرع بتشجيع المضطهدين قائلاً : « ولنتحاضر بالصبر فى الجهاد الموضوع أمامنا » (عب١٢ : ١) ، لأنه حتى وإن كانت التجربة لا تعطى راحة ، عالمين أن الضيق ينشىء صبراً والصبر تزكية والتزكية رجاء والرجاء لا يخزى لأن محبة الله قد انسكبت فى قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا » (رو٥ : ٣-٤) .

أما أشعياء النبى فعندما كان يتوقع موقفاً مماثلاً ، رفع صوته وصرخ قائلاً : « هلم يا شعبى ادخل مخادعك واغلق أبوابك خلفك . إختبىء نحو لحيظة حتى يعبر الغضب » (أش٢٦ : ٢٠) .

وفى سفر الجامعة على رأس المؤامرات المحاكة ضد رجال الله ، يقول سليمان الحكيم : « إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل فى البلاد فلا تترفع من الأمر . لأن فوق العالى عالياً يلاحظ والأعلى فوقهما » (جا٥ : ٨) .

كان أبوه داود الذى عرف آلام الإضطهاد وكان كلمته التالية تعزّى المجربين : « لتتشدد ولتتشجّع قلوبكم يا جميع المنتظرين الرب » (مز٣١ : ٢٤) ، لأنه ليس إنسان بل كما يقول : « أما خلاص الصديقين فمن قبل الرب حصنهم فى زمان الضيق . و يعينهم

الرب و ينجّيهم . و ينقذهم من الأشرار ويخلّصهم لأنهم إحتموا به » (مز٣٧: ٣٩-٤٠) ، أولئك الناس المنحنين تحت مثل هذه التجربة .

« إنتظاراً إنتظرت الرب فمال إليّ وسمع صراخي وأصعدني من جب الهلاك من طين الحمأة وأقام على صخرة رجلي . ثبت خطواتي وجعل في فمي ترنيمة جديدة تسبيحة لإلهنا . كثيرون يرون ويخافون و يتوكلون على الرب » (مز٤٠ : ١-٣) .

كل هذا يبيّن أن هروب القديسين نافع للشعوب ، وهو ليس بدون جدوى مهما ظن بشأنه الأريوسيون . فإن القديسين كما قلنا كانوا محفوظين لهروبهم . بطريقة غير عادية وحسب مخطط العناية الإلهية ، كما يكون الأطباء محفوظين لأجل مرضاهم . وبالنسبة للآخرين ، وبالفعل بالنسبة لنا جميعاً نحن البشر ، فالقانون هو أن نهرب عندما نكون مطاردين ، ونختبيء عندما يفتشون عنا ، ولا ندع أنفسنا ننجذب إلى تجربة الرب ، بل لننتظر ، كما قلت الآن ، الوقت المحدد لمماتنا ، أو حكم الديان الذي يحكم به حسب مسرته . ومع ذلك فكل واحد عليه أن يكون مستعداً للمعركة حتى الموت .

هكذا كان سلوك الشهداء الطوباويين في الإضطهادات في

أزمنتهم : يهربون عندما يكونون مطاردين ، و يظلون ثابتين عندما يكونون مختبئين ؛ و يشهدون عندما يكتشفون . وحتى إذا كان البعض منهم قد سلّموا أنفسهم من تلقاء ذواتهم إلى مضطهديهم ، فما كانوا يفعلون ذلك اعتباطاً ؛ كانوا يستشهدون بدون تأخير ، وكان كل العالم يعرف أن تعجلهم الشهادة بهذا السلوك التلقائي كان بفعل الروح القدس .

تلك كانت تعاليم المخلص وكيفية ممارسة القديسين لها . فليقل لنا هؤلاء الرجال الذين لا يحتملون أبداً كلمة شديدة على أنفسهم . ليقولوا لنا أين تعلّموا التفنّن في الإضطهاد . هل من القديسين ؟

إنهم لا يجسرون على هذا الزعم . إذن تلقنوا ذلك من الشيطان ، وليس هناك بديل لذلك ؛ فهو الذي يقول : « اتبع ادرك أقسّم غنيمة . تمتلىء منهم نفسي . اجرّد سيفي . تفنيهم يدي » (خر١٥: ٩) .

من نصدّق إذن ، هل نصدّق كلمات الرب أو رواياتهم هم ؟ كيف نتصرف ؟ أنعمل ما عمله القديسون أو الأعمال التي يخترعونها هم ؟

ولكنهم في ذلك أيضاً ينقصهم التمييز، فهم فعلاً مرضى بإظلام البصيرة والضمير، كما يقول أشعياء النبي: « ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً الجاعلين الظلام نوراً والنور ظلاماً الجاعلين المرّ حلواً والحلو مراً » (أش ٥ : ٢٠).

ليأت واحد منا ليخزيهم قائلاً: « الرب لي بين معينيّ وأنا سأرى بأعدائي. الاحتماء بالرب خير من التوكل على الإنسان. الاحتماء بالرب خير من التوكل على الرؤساء » (مز١١٨: ٧-٩).

خير لنا أن نصدق الرب من أن نستند إلى خرافاتهم. فإن كلمة الرب تحمل الحياة الأبدية، أما حججهم فهي على النقيض من ذلك مليئة خبثاً ودماً.

شجاعة القديس في مواجهة الجند

يكفي ما قلنا لدحض الادعاءات المجنونة البعيدة من الصحة لهؤلاء المنافقين، حتى يظهر أنهم لا يبغون سوى التنافس على الأساليب الشريرة والأقوال المهينة. لكن طالما قد تجاسروا مرة أن يتخذوا موقفاً معادياً للمسيح، فهم منذ الآن لا يهدأون، وأقل ما يجب عليهم أن يذهبوا لكي يستعلموا عن هروبنا ولا يغفلوا عن سؤال أنفسهم. لأنه كان هناك أريوسيون مع جمع الجنود يهجوننا ويشيرون إلينا، لأنهم كانوا يجهلون شخصنا، كانوا بلا رحمة، فليقتنعوا بالسكون والوقوف عند حدهم في شعور بالخزي عند سماع هذه الوقائع.

كان الوقت قد أمسى، وكان بعض الناس ساهرين في انتظار التعليم، حينما حضر فجأة الجنرال سريانوس

مع رجاله. وكانوا أكثر من خمسة آلاف رجل مسلحين بالسيوف وقد أخرجوها من اغمادها، وبالأقواس، والسهام، وبالعصي كما سبق أن قلنا. فأحاط بالكنيسة وكان بنفسه يشرف على جمع القوة صفوفاً متلاصقة خوفاً من أن يخرج أحد من الكنيسة فيهرب منهم. أما أنا فكنت أعتبر أنه لا يليق أن أترك شعبي في وقت عصيب مثل هذا

بدلاً من أن أبذل نفسى . فجلست على العرش وأعطيت أمراً إلى الشماس أن يقرأ مزموراً ، وإلى الشعب أن يشترك فى ذلك بالرد قائلين : « إحمدوا الرب لأنه صالح لأن إلى الأبد رحمته » (مز١٣٦ : ١) ، و بعد ذلك لإنصراف و يذهب كل واحد إلى بيته .

ولكن الجنرال كان فى ذلك الوقت قد دخل بالقوة ، وكان رجاله يحيطون الخورس لكى يمسكونا . و بدأ الحاضرون من الاكليروس والشعب يصرخون ، ظانين أن الوقت قد جاء لنبتعد . أمّا أنا فلم أكن أريد أن أذهب قبل أن يهرب الجميع حتى آخر واحد . ولذلك قمت و بعد أن أمرت بالصلاة ، وطالبت بأن يذهب الجميع أولاً قائلاً : [من الأفضل أن أخاطر بنفسى من أن أرى أحداً منكم تُساء معاملته .] كان معظم الحاضرين قد خرج والباقون فى طريقهم إلى الخروج ، ولم يلبث أن رجع بعض الاكليريكيين مع الرهبان وأحاطوا بنا لكى يسحبونا . وهكذا ، والحق يشهد لى ، غادرنا المكان ، بينما كان بعض الجنود يحيطون بالخورس والبعض الآخر فى دوريات حراسة حول الكنيسة . كان الرب يقودنا ويحفظنا . وابتعدنا بدون علمهم ، ممجدين الله الذى حفظ الشعب وجعله ينتصرف قبلنا ، دون أن يمنع ذلك من تخليصنا ، فأمكننا الهروب من أيدى المضطهدين .

هذه هى إذن الواقعة العجيبة التى وضعتنا فيها العناية الإلهية بعيداً عن الخطر . من ذا يستطيع بعد ذلك أن يصدر نقداً منزّهاً لكوننا لم نسلم أنفسنا و بغير دفاع إلى أيدى المضطهدين ، أو لم نرجع لكى نسلم أنفسنا ؟ إن طريقة التصرف الأخيرة هذه تكون حقاً نكراناً للجميل تجاه الرب ، وعصياناً لأمره الصريح ، وحكماً على سلوك القديسين .

أيقدر المرجفون أن يهاجموا بطرس الرسول العظيم ؟ فإنه كان محبوساً وتحت حراسة شديدة ، ثم تبع الملاك الذى كان يناديه ؛ ثم إذ خرج من السجن ورأى نفسه قد نجا ، لم يرجع لكى يسلّم نفسه ، مع أنه أُعلم بسلوك هيرودس .

فليهاجم هذا الأريوسى المسكين ذو الرأى العقيم ، القديس بولس ، لأنه بعد أن نزل من الحائط ونجا ، لم يغيّر رأيه فيرجع لكى يسلّم نفسه !

وموسى النبى ، لأنه لم يترك مديان و يعود إلى مصر ليسلّم نفسه لأيدى مطارديه ؛ وداود الذى رفض أن يظهر ذاته لشاول فى المغارة ؛ ولا ينسى أولاد الأنبياء الذين ظلوا مختبئين ولم يسلّموا أنفسهم إلى آخاب .

على أى حال ، لو حدث لكان كسراً للوصية لأن الكتاب المقدس يقول : « لا تجربوا الرب إلهكم » (تث ٦ : ١٦) .

كل ذلك التصرف ، وإذ تعلمته من الكتاب المقدس ، تصرّفت حسب هذه النماذج . إنى لا أحتقر نعمة الرب ولا معونته بالرغم من صر ير الأسنان الذى أتاه هؤلاء المندفعين ضدنا .

تلك كانت ظروف هروبنا ولا اعتقد أنها تستحق أى لوم من ذوى الرأى السليم طالما كانت حسب الكتب الإلهية ، فهكذا يُقتدى بالقديسين فى التعليم . ولكن فى نظر أعدائنا . ليس فى الأمر تجربة حتى تستحق الاهمال ، ليثبتوا شرهم وفسادهم ومن جهة أخرى فإن حياتهم نفسها مطابقة لكبريائهم ولتفاهاتهم ، و يقصر أى إتهام ضدهم أن يحصى أعمالهم الخزية بتراكمها وخطورتها . ليونس Léonce مثلاً ، تجاه التهمة والتورط فى المعيشة مع امرأة شابة تدعى اوستوليون Eustolion قطع أعضاءه لكى يستطيع أن يعيش معها دون خجل . ولكن ذلك العمل لم يبرره لصفته ككاهن ، بل عجّل إيقافه وهذا لم يمنع قونستنس Constance الهرطوق من أن يفرض تعيينه أسقفاً . ونرسيس Narcisse أيضاً لا تحصى جرائمه المتنوعة وقد أوقف ثلاث مرات فى مجامع مختلفة ، والآن بينهم أكثر

حماساً . أما جورج فقد رأى نفسه موقوفاً عن وظيفته وهو لا يزال قساً بسيطاً بسبب سوء سلوكه ، وإذ أقام نفسه أسقفاً ، أوقف من جديد فى مجمع سرديك Sardique الكبير . ولكنه يحمل وزراً أكبر أيضاً لأنه يحيا حياة النجاسة بعلم الجميع .

لذلك لا نعجب أنه يوجد حتى بين الموثوق بهم من كان كل همّه أن يحيا حياة الفسق والفجور ، حتى كان كل واحد منهم ينافس الآخر فى رذائل الآخرين ، ولكن وزراً مشتركاً يدفعهم جميعاً : هو الهرطقة التى تجعلهم اضداداً للمسيح . فلا يسمّون بعد مسيحيين بل أر يوسيين .

تلك جرائمهم ، وكان الأولى بهم أن يترفّعوا عنها صحّ أنهم يسيرون وفقاً للإيمان بالمسيح . ولكنهم يخفون ذلك طلباً للمصلحة الذاتية ، ولا عجب فقد كانوا فى أنانيتهم وفى إنغماسهم فى تلك الرذائل المتشابكة ، يضطهدون الناس و يفتّشون عن الذين لا ينضمّون إلى هرطقتهم وهى أفظع من كل هرطقة .

ولذلك فهم يهللون عندما يمسكون أحداً ؛ وعلى العكس يذلون إن لم يمسكوا من كانوا يبتغون القبض عليهم ، و يعتبرون أن غبناً وقع بهم عندما يرون من راموا قتلهم أحياء .

ليتهم يعانون ما يرونه يخفف من غلوائهم ، بينما يشكر ضحايا إضطهاداتهم الرب بكلمات المزمور: « الرب نورى وخلاصى ممن أخاف . الرب حصن حياتى ممن أرتعب . عندما اقترب إلىّ الأشرار ليأكلوا لحمى مضايق وأعدائى عثروا وسقطوا » (مز٢٧ : ١-٢) « أبتهج وأفرح برحمتك لأنك نظرت إلى مذلتى وعرفت فى الشدائد نفسى . ولم تحبسنى فى يد العدو بل أقمت فى الرحب رجلى » (مز٣١: ٧-٨) بالمسيح يسوع ربنا الذى له المجد والسلطان مع الآب والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .